

مقدمة

في الستينات وفي أعقاب حركة النقد الجديد، كانت التساؤلات الدائرة على لسان المتخصصين وغير المتخصصين تدور حول ماهية النقد الأدبي ومناهجه، بدعوى أن النقد الأدبي أصبح يعتمد على مفاهيم العلوم الإنسانية، والتجريبية اعتمادا أساسيا في دراسته للأثر الأدبي. هذا الاتجاه يعد في نظر بعض النقاد اتجاها مضادا لطبيعة الأدب، ولا يدخل في نطاق البحث الأدبي، نظرا لأن الأثر الأدبي لا يحتل مكانة أساسية في هذه الدراسات.

فالحقائق السيكلولوجية والسوسيولوجية أو الفلسفية قد طغت على دراسة الناقد. ولكن البعض الآخر من النقاد، رأوا أن الوظيفة الأساسية للنقد هي الوصول إلى المعانى الخفية العميقة في الأثر الأدبي وأن مراعاة طبيعته تتطلب الاعتماد على نظرية عامة للعلامات. فلمعرفة الأدب، يجب الاستعانة بدراسات العلوم الإنسانية، لكي تساعدنا على فهم معانيه ودلالاته المتعددة. وتعد وظيفة الناقد وظيفة علمية نظرا لأنه يعتمد على تحليل اللغة الرمزية للأثر، ويعتبر هذا، الأخير واقعة انثروبولوجية.

لقد تجلت بوضوح في المرحلة الراهنة مظاهر تعدد الاتجاهات النظرية، وشدة الصراعات الفكرية التي استقرت أخيرا عن انتصار النزعة العلمية في النقد لاسيما بعد شيوع المنهج البنائي في ميدان النقد خاصة وفي ميدان العلوم الإنسانية عامة.

ولعل هذا هو السبب فيما ذهب إليه بعض النقاد من أن وراء النقد الأدبي المعاصر ابستمولوجيا خفية تود أن تحقق نمطا من الوضعية الجديدة. فالكتابات

الشائعة الآن في ميدان النقد الأدبي في أوروبا أو في أمريكا - رغم ظهور النزعة التفكيكية - إلا إنها تتميز بحرصها الشديد على التزام حدود العلمية.

والحق أننا لو أمعنا النظر في الاتجاهات النقدية المتباينة التي نلتقى بها لدى كل من بارت وجولدمان وتشومسكى وجاكسون وغيرهم، لوجدنا أنه ليس ثمة منهج واتجاه واحد يجمع بينهم، لأن النقد الجديد الذى يجمع بينهم ليس له مدخل واحد، فهناك من يركز على بنية الأثر ويهمل جانبا شخصية الكاتب أو المجتمع الذى يرتبط به، مما يؤدي إلى التركيز على تحليل الأثر في ذاته، دون النظر إلى العوامل التى ساهمت في تشكيله وفي توجيهه. وهناك من يركز على الصلات بين بنية الأثر وبنية العالم الخارجى. هناك لاشك لقاء ذهنى بصفة عامة ومنهجى بصفة خاصة بين نقاد متباينين يعيشون معا عصرا واحدا ألا وهو عصر النزعات العلمية.

والحق أن الذى يجمع بين بارت وجولدمان لا مفهوم الأثر الأدبي الواحد، وإنما هو التمسك بالنزعة الوضعية، والتشبث بتطبيق مناهج العلوم التجريبية والإنسانية في دراسة الأثر الأدبي. فالقول بأن النقد الأدبي أصبح علما Lafna، أنها يعنى أن مهمة النقد قد تغيرت ولم تعد تعتمد على التأملات الميتافيزيقية والطرق العشوائية، وأصبحت في أساسها مهمة علمية منهجية لدراسة الآثار الأدبية والفنية عموما، سواء أكان الأثر نمطا بنائيا أو بناءا صوريا أو رمزا للحياة الاجتماعية... الخ.

والقول بأن مهمة النقد الأدبي أصبحت مهمة علمية، لأن الأثر الأدبي يتضمن لغة رمزية عميقة متعددة المعانى تتطلب الفهم والبحث في معانيها وهذا يحتم على الناقد أو الباحث الاستعانة بمناهج تلك العلوم. هذا القول ليس قولا معيبا طالما أن النظرية النقدية بوجه عام لا تستطيع الاستناد إلى مصادر ذاتية لهذا يجب أن تدعمها النظرية العلمية والنظرية الميتافيزيقية نظرا لأنه لم تتوافر فيها اللغة والمصطلحات التى يمكن بفضلها أن تحقق تلك المصادر الذاتية. ولكن القول بأن مهمة النقد أصبحت مهمة علمية تعتمد على المعايير العقلية لأن الأثر الأدبي نمط بنائى ذو لغة رمزية متعددة المعانى والدلالات، أنها في الحقيقة قول ناقص يفسر

الأثر الأدبي على ضوء نظرة وحيدة الجانب. والسبب في ذلك أن الأثر الأدبي لا ينطوي فقط على أنماط عقلية من البنيات، نظرا لأن هذه البنيات تتفاعل بصورة دينامية مع مضمون الحياة النفسية أو الاجتماعية رغم أن مفهوم البنية في ميدان النقد الأدبي، يعد مفهوما فكريا خاصا يحمل في طياته تجديدا وانقلابا نقديا في تاريخ النقد المعاصر.

والواقع حينما صدر كتاب جولدمان Goldman المسمى "سوسيولوجيا الرواية" سنة ١٩٦٤. وحينما ظهر في أعقابها مؤلف بارت Barthes الموسوم باسم "درجة الصفر في الكتابة" سنة ١٩٦٥. وهما الكتابان اللذان أحدثا ضجة كبرى في عالم النقد، كما حظيا بالكثير من الاهتمام من جانب النقاد. هذا الحدث المزدوج قد دفع بالنقد الجديد من نزعة العلمية إلى نزعة أيديولوجية. ودليل ذلك أن المفهوم النقدي الذي انطوت عليه حركة النقد الجديد قد جاء مؤكدا للدعوى القائلة بأن تضاعف هذا الاتجاه النقدي الجديد انكار لقدرة النقد القديم على القيام بتطوير مهمة النقد ومن ثم فقد أخذ البعض يؤكد أن النداء الخاص الذي اتحدت عنده كلمة النقد الجديد هو اعلان نهاية النقد القديم.

والمشاهد أن المدافعين عن حركة النقد الجديد باعتبارها حركة علمية تدعو لفهم أو تفسير الأدب على ضوء منهج علمي محض، قد لا قوا في هذا المنظور النقدي خصوصا من أنصار "النقد التقليدي" فهذا الأخير يعد من وجهة نظرهم مجرد تشويه أو سوء فهم لصميم الطابع العلمي للنقد. ويذهب واحد من أصحاب النقد الجديد في رده على "أصحاب النقد التقليدي" فيقول: "إن الأثر الأدبي يتضمن بحكم بنائه لغة رمزية ومعاني متعددة، لفهم هذه المعاني المتعددة ينبغي أنشاء علم مستقل يسمى "علم الأدب" ويضيف بأن خصوصية الأدب لا يمكن أن تحقق إلا بإنشاء نظرية عامة للعلامات، تعتمد على شتى مجالات العلوم الإنسانية، ولا يهمننا - في هذا الصدد - أن نتوقف عند مضمون هذه العبارة التي ترى في إنشاء علم الأدب ضرورة لفهم دلالات الأثر الأدبي، وإنما الذي يعيننا من وراء ذلك هو أن نكشف عن المنظور العلمى أو البعد الأيديولوجى الذى انطوت عليه حركة النقد الجديد.

حقاً، أن النقد الجديد قد ظهر في أساسه للتعبير عن حاجة الأدب المعاصر إلى لغة نقدية ذات طابع علمي، وكأنها هي مجرد تعبير عن حاجة النقد إلى نظرية علمية. والبحث عن لغة علمية للنقد، لم يحل دون ظهور النقد الجديد بمظهر الموقف النظري، وبالتالي فإنها قد خلقت من معارضة النقد الجديد للنقد التقليدي صورة جديدة من صور الجدل النقدي.

ومن مظاهر هذا "الموقف النظري"، هو تلك الحملة التي شنها دعاة النقد الجديد، وفي مقدمتهم بارت خصوصاً في كتابه المسمى "النقد والحقيقة" ودوبرفسكي في كتابه المسمى "لماذا النقد الجديد" وفير في كتابه المسمى النقد القديم والنقد الجديد أو ضد بيكار "حيث تتجلى بوضوح نزعتهم العلمية الجديدة.

وحينما ظهرت محاولة جولدمان لتفسير الأدب تفسيراً علمياً سوسيولوجياً يعتمد على مفاهيم النقد البنائي ومفاهيم علم الاجتماع في وقت معاً، هنالك تم نمط من التلاقى بين هذه السوسيولوجية العلمية الجديدة من جهة وبين النقد الجديد من جهة أخرى. وقد كانت نقطة التلاقى بين الاتجاهين على المستوى النظري، إنها هي تلك النزعة العلمية للنقد (أعني تفسير الأثر باستناده إلى لغة علمية).

ولم تكن هذه القراءة النقدية الجديدة للأدب من جانب جولدمان وأتباعه مجرد محاولة علمية لتخليص النقد الأدبي السوسيولوجي من التفسيرات المبتذلة، والأنظار الميتافيزيقية المحضة، وإنما كانت أيضاً تأكيداً لذلك الموقف النظري العلمي الذي كان من آثاره تصفية الدراسة النقدية من شوائب التأويل المبتذلة، من أجل استبعاد كل إحالة إلى الانطباعات، أو التأثيرات الوجدانية لقراءة الآثار الأدبية التي يعتبرها النقد التفكيكي مبدأ من مبادئه الجوهرية.

إن النقد الجديد لم يعد مجرد حركة منهجية علمية تبرز أهمية مفهوم اللغة العلمية في تفسير الظواهر الفنية والفكرية،، الخ، بل أصبح شيئاً أكثر من مجرد تطبيق للمنهج النقدي العلمي على الآثار الأدبية. إذ صار المحور الذي تدور حوله المشكلة الأدبية التي تواجه الباحث أو الناقد إلا وهي: ماهية الأثر الأدبي في ضوء تلك

النظرة النقدية العلمية؟ إن هذه الآراء تود أن تبرز بصفة مطلقة الحاق النقد الأدبي بالعلوم الإنسانية والتجريبية خصوصا وأن كلا من بارت وجولدلمان قد أعلن بوضوح أن الجهود النقدية التي يقوم بها هي الكفيل بدفع النقد نحو ميدان العلوم الإنسانية، باعتبار أن النقد الأدبي اليوم يحمل في طياته مجموعة العلوم المهتمة بدراسة بنيات الأثر ودلالاته. فلا بد لنا مع ذلك من محاولة التعرف على الوضع الحالي للأثر بعد حركة النقد الجديد، أو بالأحرى، ما الذي أصبح في وسع الناقد أن يقوله بعد التطور الذي أحرزته الدراسات النقدية في مجال التحليل النفسى، والسوسيولوجى والفينومونولوجى؟... الخ. وفضلا عن ذلك، فإنه من المؤكد أن نقاداً من أمثلة جولدلمان، وبارت، ودوبرفسكى وجاكسون إنما يدينون بالشئ الكثير في صميم تفكيرهم النقدى للدروس المنهجية التي تلقوها من ميدان العلوم اللسانية والتجريبية، حقا أنه ليس ثمة منهج واحد يجمع بين كلا هؤلاء النقاد ولكن هناك - مع ذلك مناخا فكريا مشتركا - يبرر الجمع بينهم في إطار نقدى واحد ولعل هذا ما جعل الناقد الفرنسى المعاصر دوبرفسكى يشير إلى وجود سمات مشتركة تجمع بين كل المنتمين إلى النقد الجديد ومن بينهم تدوروف (ناقد شكلى) وبلوم (ناقد نفسى) ولنهاردت (ناقد سوسيولوجى)... الخ.

لسنا الآن بصدد حصر السمات العامة المشتركة بين اتجاهات النقد الجديد. وإنما حسبنا أن نقول - مع دوبرفسكى - أن للنقد الجديد مثلاً أعلى واحد مشترك يتلخص في البحث عن لغة علمية لدراسة الأثر الأدبى. ولكننا ما نكاد نتجاوز هذا المثل الأعلى المشترك، بين كافة الاتجاهات حتى نجد أنفسنا بإزاء اتجاهات نقدية متباينة، تحاول التوصل إلى نظرية نقدية تحت تأثير العلوم الإنسانية. وهذه المحاولة تعد من بعض الجوانب محاولة يوتوبية لا علمية. هذا برغم وجود حشد من المداخل النظرية النقدية الوصفية تارة، والوظيفية تارة أخرى، والشكلية طورا، والتاريخية طورا آخر، تلك المداخل النظرية المتباينة التي اختلطت فيما بينها أشد الخلط وامتزجت في النقد الأدبى المعاصر وظهرت في كتابات بارت وجولدلمان، ومورن، وتدوروف، وبروب، وغيرهم.

إن الاتجاهات النقدية التى تتابعت وتواترت خلال السياق النظرى، المتكامل فى تاريخ النقد الأدبى المعاصر هى بمثابة مواقف تراكمت حتى خيل إلى مؤرخى النقد أنها جميعا بمثابة المناهج أو الطرق تتخذ مجموعة من المسارات للتوصل إلى النظرية النقدية. ومن هنا تعددت النزعات وتضافرت الاتجاهات كى تصب قضاياها ومفاهيمها فى أشكال متميزة من أجل تحقيق نظرية نقدية إلا أن هناك صعوبات تقف حجر عثرة من أجل تحقيق نظرية نقدية علمية، إلا أننا سنفصل القول فى هذه الصعوبات فى مواضع أخرى من البحث.

أما الآن فىمكن أن نشير إلى أن النقد الأدبى اليوم يود أن يؤسس مجموعة من القضايا والأسس النظرية التى يستخلص منها الباحث أو الناقد أحكاما عامة تقرر وجود علاقة موضوعية بين بناء الأثر وبين عناصره الداخليه، او بين بناء الأثر والبنىات الاجتماعية، معتمدا فى ذلك على المشاهدات والفروض والإجراءات التجريبية. انطلاقا من التزامه بالمعايير العقلية فى تحليل الأثر، على الرغم من أن المفاهيم الميتافيزيقية مازالت مستغرقة فى أصول النقد الأدبى. فهى مبعث القضايا النظرية الأولية التى توجه الدراسة الأدبية وتنظم جانبها التجريبى.

فالمفاهيم الميتافيزيقية تمد النقد الأدبى كما تمد العلوم الإنسانية بالافتراضات المفيدة التى تستضى بها النظرية النقدية، وغيرها من النظريات فى مجال العلوم التجريبية أو مجال العلوم الإنسانية.